منهم من الجو الملائم ، ويقطع الأعذار فى التخلف عن أداء هذه الفريضة .

إذن : بالتوقيت القمرى يأتى الحج فى كل أوقات السنة ؛ لذلك قال البعض : إن ليلة القدر دائرة فى العام كله إذا ما قارنا التوقيت الشمسى بالتوقيت القمرى ، فإن اتفقنا على أن ليلة القدر فى السابع والعشرين من رمضان ، فإنها ستوافق أول يناير مثلاً ، وفى العام التالى توافق الثانى ، ثم الثالث وهكذا .. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ..

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] وما دام أنه سبحانه خبير بما تعملون ، فهو الذى يهيىء لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته ؛ لذلك شرع لكم الأعمال التى تنظم حركة حياتكم وحركة عبادتكم ؛ لذلك نجد رمضان مثلاً يدخل بالليل فنقول هذه الليلة من رمضان ، أما يوم عرفة فيدخل بيومه لأنه يوم مجموع له الناس .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] معطوفة على ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] فالتقدير : وألم تر أن الله بما تعملون خبير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] إشارة إلى ما تقدم ذكْره من دخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، ذلك كله ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] فكل ما تقدم نشأ عن صفة من صفات الله وهو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فكأن ناموس الكون بكل أفلاكه وبكل المخلوقات فيه له نظام ثابت لا يتغير ؛ لأن الذى خلقه وأبدعه حق ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو (الحق) فما يدّعونه من الشركاء هم الباطل ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] ، فلا يوجد فى الشيء الواحد حقَّان ، فإنْ كان أحدهما هو الحق فغيره هو الباطل ، فالحق واحد ومقابله الباطل . وأيُّ باطل أفظع من عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة وشركاء مع الله عز وجل ؟

كيف وهى حجارة صوَّروها بأيديهم وأقاموها ليعبدوها من دون الله ، والحجارة جماد من جمادات الأرض ، والجماد هو العبد الأول لكل المخلوقات ، عبد للنبات ، وعبد للحيوان ، وعبد للإنسان ؛ لأنه مُسخَّر لخدمة هؤلاء جميعاً .

فكيف بك وأنت الإنسان الذى كرَّمك ربك وجعل لك عقلاً مفكراً تتدنى بنفسك وترضى لها أنْ تعبد أدنى أجناس الوجود ، وتتخذها شريكاً مع الله ، وأنت ترى الريح إذا اشتدتْ أطاحتْ باللات أو بالعزى ، وألقتْه على الأرض ، وربما كُسرت ذراعه ، فاحتاج لمن يصلح هذا الإله ، إذن ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. (٣٠) ﴾ [لقمان]

لذلك ؛ قلنا فى الحروب التى تنشب بين الناس : إنها لا تنشب بين حقين ؛ لأن الحقيقة لا يوجد فيها حقَّان ، إنما هو حق واحد ،

والآخر لا بُدَّ أن يكون باطلاً ، أو تنشأ بين باطلين ، أما نشأتها بين حق وباطل فإنها فى الغالب لا تطول ؛ لأن الباطل زهوق .

والعاقبة لا بُدَّ أنْ تكون للحق ولو بعد حين ، أما الباطل فإنه زَهُوق ، إنما تطول المعركة إنْ نشبت بين باطلين ، فليس أحد الطرفين فيها أهلاً لنصرة الله ، فتظل الحروب بينهما حتى يتهالكا ، وتنتهى مكاسب طغيان كل منهما ، ولا يردهما إلا مذلَّة اللجوء إلى التصالح بعد أنْ فقدا كل شيء .

لذلك نرى هذه الظاهرة أيضاً فى توزيع التركات والمواريث بين المستحقين لها ، حيث ينشب بينهم الخلاف والطعن واللجوء إلى القضاء والمحامين حتى يستنفد هذا كله جزءاً كبيراً من هذه التركة ، حتى إذا ما صَفَتْ مما كان بها من أموال جُمعتْ بالباطل ترى الأطراف يميلون إلى الاتفاق والتصالح وتقسيم ما بقى .

واقرأ إنْ شئت حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش[1] أذهبه الله فى نهابر[2] »[3] ومعنى : مهاوش يعنى بالتهويش أو كما نقول (بيهبش) من هنا ومن هنا ، وطبيعى أن يُذهِب الله هذا المال فى الباطل وما لا فائدة منه .

وسبق أن أعطينا مثلاً لمصارف المال الحرام بالأب يرجع إلى بيته ، فيجد ابنه مريضاً حرارته مرتفعة ، فيسرع به إلى الطبيب

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حلّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك ، أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة . [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى: لا يصح .

ويصيبه الرعب ، ويتراءى له شبح المرض ، فينفق على ابنه المئات ، أما الذى يعيش على الكفاف ويعرق فى كسب عيشه بالحلال فيكفيه فى مثل هذه الحالة قرص أسبرين وكوب ليمون ، فالأول أصاب ماله من مهاوش ، والآخر أصابه من الحلال .

فقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الحق هو الظاهر وهو الغالب ، فإنْ قلتَ كيف ونحن نرى الباطل قد يعلو على الحق ويظهر عليه ؟ ونقول : نعم ، قد يعلو الباطل لكن إلى حين ، وهو فى هذه الحالة يكون جندياً من جنود الحق ، كيف ؟ حينما يعلو الباطل وتكون له صَوْلَة لا بُدَّ أن يعض الناس ويؤذيهم ويذيقهم ويلاته ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه ويتشوقون إليه .

إذن : لولا الباطل ما عرفنا ميزة الحق ، ومثال ذلك الألم الذى يصيب النفس الإنسانية فينبهها إلى المرض ، ويظهر لها علتها ، فتطلب الدواء ، فالألم جندى من جنود الشفاء ، وقلنا سابقاً : إن الكفر جندى من جنود الإيمان .

لذلك لا تحزن إنْ رأيتَ الباطل عالياً ، فذلك فى صالح الحق ، واقرأ قول ربك عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. (١٧) ﴾ [الرعد] يعنى : يأخذ كل واد على قدره وسعته من الماء ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا .. (١٧) ﴾ [الرعد] وهو القش والفتات الذى يحمله الماء ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : مثلاً لكل منهما .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد] يعنى : مطروداً مُبْعداً من الجفوة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه ﴿ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] وأن غيره من آلهة المشركين هم الباطل ذكر لنفسه سبحانه صفتين أخريين ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾ [لقمان] العلى الكبير يقولها الله تعالى ، ويقولها رسوله ﷺ ، ونقولها نحن ؛ لأن الله قالها ؛ ولأن النبى الصادق أخبرنا بها ، لكن المسألة أن يشهد بها مَنْ كفر بالله .

لذلك يعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نحمد الله حينما يشهد الكافر لله رغم كفره به ، كما ورد فى الآيات السابقة : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان]

فهذه الشهادة منهم تستحق من المؤمن أن يقول : الحمد لله ؛ لأنها شهادة جاءت ممَّنْ كفر بالله وكذَّب رسوله وحاربه ، وأيضاً تنظر إلى هذا الكافر الذى تأبَّى على منهج الله وكذَّب رسوله حين يصيبه مرض مثلاً ، أيستطيع أنْ يتأبى على المرض كما تأبَّى على الله ؟ هذا الذى ألف التمرد على الله : أيتمرد إنْ جاءه الموت .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] أى : لا يجدون أمامهم ساعة الكرب والهلاك إلا الله ؛ لأن الإنسان فى هذه الحالة لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، بالله أرأيتم إنساناً أحاطتْ به الأمواج ، وأشرف على الهلاك يدعو يقول : يا هبل ؟ إذن : الله هو العلى وهو الكبير ، وغيره شرك وباطل.

وسبق أن ضربنا مثلاً للإنسان ، وأنه لا يغشُّ نفسه ، ولا يخدعها خاصة إذا نزلتْ به ضائقة بالحلاق أو حكيم الصحة كما كانوا يطلقون عليه ، فهو يداوى أهل القرية ويسخر من طبيب الوحدة

الصحية ، ويتهمه بعدم الخبرة ، لكن حين مرض ولده وأحسَّ بالخطر أخذ الولد وتسلَّل به فى ظلام الليل ، وذهب إلى الطبيب .

فلله وحده العلو ، ولله وحده الكبرياء ، بدليل أن الكافر حين تضطره أمور الحياة وتُلجئه إلى ضرورة لا مخرجَ منها لا يقول إلا : يا الله يا رب .

فالله هو العليُّ بشهادة مَنْ كفر به ، ثم أردف صفة (العلى) بصفة (الكبير) ؛ لأن العلى يجوز أنه علا بطغيان وعدم استحقاق للعلو ، لكن الحق سبحانه هو العلى ، وهو الكبير الذى يستحق هذا العلو .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى آية أخرى من آياته فى الكون :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه بعض الآيات الكونية البعيدة عنا أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً آخر للآيات التى بيْن أيدينا فى الأرض فقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ** .. ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] ألم تر : يعنى ألم تعلم ﴿ **أَنَّ الْفُلْكَ** .. ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] أى : السفن .

وربما أن سيدنا رسول الله لم يَرَ هذه السفن فى البحار ، ولم تكن قد ظهرت السفن العملاقة التى نراها اليوم كالأعلام ، كما فى قوله

سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن]

ومتى وُجدت البوارج العالية التى تشبه الجبال والمكوَّنة من عدة أدوار ؟ لم توجد إلا حديثاً ، إذن : فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

ومَنْ يبحث فى القرآن يجد فيه الكثير من هذه الآيات التى تثبت صدْق القرآن وصدْق رسول الله فى البلاغ عن الله .

وذكرنا قصة المرأة التى أسلمت لما قرأت التاريخ الإسلامى ، وقرأت فى سيرة رسول الله أن المؤمنين به كانوا يجعلون عليه حراسة دائمة يتبادلونها حماية له من أعدائه ، وفجأة صرف رسول الله هؤلاء الحرس من حوله وقال لهم لقد أنزل الله علىَّ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧) ﴾ [المائدة] فوقفت المرأة عند هذه الآية وقالت : والله لو أن هذا الرجل كان يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته .

وقلنا فى معنى ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٣١) ﴾ [لقمان] أنها بمعنى ألم تعلم ، لأن إعلام الله لك أوثق من رؤية عينيك .

وكلمة ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [لقمان] الجرى : حركة تودع فيها مكاناً إلى مكان آخر ، هذا التوديع إما أن تمشى الهُوَيْنَا أو تجرى . لكن ما هى نعمة الله فى جريها ؟ أولاً كانت أول سفينة من الخشب المربوط إلى بعضه بالحبال والدُّسُر[1] ، وكان

(١) الدسر : مسامير السفينة وشرطها التى تشد بها . والدسار : المسمار ويقول تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] .

الغاطس منها في الماء حوالي شبر واحد يزيح من الماء بحجم وزن السفينة ، فإذا ما وضعت عليها ثقلاً فإنها تغطس بمقدار هذا الثقل ، حتى إذا ما زاد وزن الماء المزاح عن وزن السفينة وحمولتها فإنها تغرق .

وهذه الفكرة هي التي تُستخدم في الغواصات ، فبالوزن يتم التحكم في حركة الغواصة تحت الماء . والآن نرى السفن العملاقة والتي تُصنع من الحديد ، والعجيب أن هذا الحديد الصلب يحمله الماء السائل الليِّن ويجرى به ، ثم تأتي الريح فتدفع السفن إلى حيث تريد ، حتى وإنْ كانت تسير عكس جريان الماء ، ويتمكن ربان السفينة من التحكم في حركتها باستخدام بعض الآلات البسيطة وبتوجيه الشراع بطريقة معينة فتسير السفينة حسب ما أراد حتى لو كان اتجاهها عكس اتجاه الريح ، ويسمون هذه الحركة (تسفيح).

لذلك يقول سبحانه عن حركة السفن : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣) ﴾ [الشورى]

وكأن الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن أقل الأشياء كثافة بقوة الحق له يحمل أكثر الأشياء كثافة ، وانظر إنْ شئتَ إلى جرارات النقل الثقيل ، هذه الجرارات العملاقة التي تحمل عدة أطنان من الحديد مثلاً على أي شيء تسير وتتحرك ؟ إنها تسير وتتحرك على الهواء المضغوط في عجلاتها ، والذي يأخذ قوته من هذا الضغط ، بحيث إذا زدتَ في ضغط هذه العجلات تقوى على نفسها فتنفجر .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ .. (٣١) ﴾ [لقمان] أي : من عجائبه في كونه خاصة في البحار ، ففي الماضي كنا لا نرى من المخلوقات في الأعماق إلا السمك الذي يصطاده الصيادون ، أما الآن ومع تطور

علوم البحار وطرق التصوير تحت الماء أصبحنا نرى فى أعماق البحار عجائب أكثر مما نراه على اليابسة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) ﴾ [لقمان] قوله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ .. (٣١) ﴾ [لقمان] توحى بأن آيات الله فى كونه كثيرة ، لكن على الإنسان أنْ يبذل جهداً فى البحث عنها واكتشافها ، وعليه أن يكون صبَّاراً على مشقة البحث والغوص تحت الماء ، فإذا ما رأينا ما فى أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله فقد وجب علينا الشكر ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) ﴾ [لقمان] والشكر لا يكون إلا عن نعمة جدَّت لم تكُنْ موجودة من قبل .

إذن : الحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نستقبل آياته فى الكون استقبالَ بحث وتأمل ونظر ، لا استقبال غفلة وإعراض ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وتقديم صبَّار على شكور دليل على أن الصبر على مشقات العمل والبحث والاستنباط والاكتشاف يُؤتى نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ(١) كَفُورٍ (٣٢) ﴾

---

(١) ختره : غدر به أقبح الغدر فهو خاتر وختَّار : صيغة مبالغة . [القاموس القويم ١/١٨٧] .

معنى ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ .. (٣٢)﴾ [لقمان] يعنى : غطاهم واحتواهم ؛ لذلك قال ﴿كَالظُّلَلِ .. (٣٢)﴾ [لقمان] جمع ظُلَّة ، وهى التى تعلو الإنسان وتظلله ، ولا يكون الموج كذلك إلا إذا علا عن مستوى الإنسان ، وخرج عن رتابة الماء وسجسجته . ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١)﴾ [الأعراف]

وأنت تشاهد هذه المظاهر إذا كنتَ فى عرض البحر ، فترى الموجة من بعيد أعلى منك ، وأنها حتماً ستطمسك ، حتى إذا ما وصلتْ إليك شاهدتَ فيها مظهراً من لطف الله بك ، حيث تتلاشى وتمر من تحتك بسلام ، وهذا شىء عجيب ونعمة تستوجب الشكر .

فالموج إذن شىء مخيف ؛ لذلك لما غشيهم وأيقنوا الهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٣٢)﴾ [لقمان] دعوا الله رغم أنهم كافرون به ، لكن المرء فى مثل هذه الحال لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فالأمر جد ، فلم يدعوا اللات أو العزى ، ولم يقُلْ أحد منهم يا هبل ، إنما دعوا الله بإخلاص لله ، فإنْ كانوا ملتفتين لدين آخر فى عبادة الأصنام ، ففى هذا الموقف لا بُدَّ أن يُخلصوا لله ؛ لأنهم واثقون أن الأصنام لن تنفعهم ، وأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولن يكون النفع وكشف البلاء إلا من الله الحق .

فإنْ قُلْتَ : ما دام الأمر كذلك ، فما الذى صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ؟

---

(١) النتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشىء : جذبه واقتلعه . [لسان العرب - مادة : نتق] .

قلنا : إن التديُّن طبيعة فى النفس البشرية ، وهذه الطبيعة باقية فى ذرات كل إنسان منذ خلق الله آدم ، وأخذ من صُلْبه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فشهدوا .

فكل واحد منا فيه ذرة شهدتْ هذا العهد ، وهذه الذرة هى مصدر الإشراقات فى نفس المؤمن ، وعليه أنْ يحافظ عليها بأن يأخذ قانون صيانة هذه الذرة ممن خلقها ، لا أنْ يطمس نورها بمخالفة قانون صيانته الذى وضعه له ربه ـ عز وجل ـ فيكون كمَنْ قال الله فيه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

النبى ﷺ يُوضح لنا هذه المسألة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه أو ، يُمجِّسانه »(١) .

فالنفس الإنسانية بخير ما دام فيها الإشراقيات الإلهية الأولى التى شهدتْ أن الله هو الرب ، لكن إذا تضبَّبت فلا بُدَّ أن تحدث الخيبة ويدخل الفساد .

إذن : التديُّن طَبْع فى النفس ، لكن التديُّن الحق له مطلوبات ومنهج بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا يريد أنْ يُرضى نفسه بأن يكون مُتديناً ، لكن يريد أنْ يريح نفسه من مطلوبات هذا التدين ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة إله لا مطلوبات له ، وقد توفرت هذه فى عبادة الأصنام .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) . وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » الحديث .

لكن نقول لمن عبد الأصنام : لا بُدَّ أنْ يأتى عليك الوقت الذى لا تلتفت فيه إلى الأصنام ، بل إلى الإله الحق الذى هربتْ من مطلوباته وانصرفت عن عبادته ، لا بُدَّ أن تُلجئك الأحداث إلى أنْ تلوذ به ؛ لذلك يقولون فى المثل (اللى متحبش تشوف وجهه ، يُحوجك الزمن لقفاه) .

فأنتم أعرضتم عن الله وكفرتم به ، فلما نزلت بكم الأحداث وأحاطت بكم الأمواج صِرْتم أرانب ، فلماذا الآن تلجئون إلى الله ؟ لماذا لم تستمروا على عنادكم وتكبُّركم حتى على الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] وكان ينبغى عليهم بعد أن اعترفوا أن الله هو الإله الحق الذى يُلْجأ إليه ويُستغاث به ، وبعد أنْ نجاهم وأسعفهم ، كان ينبغى عليهم أن يؤمنوا به ، وأنْ يطيعوه ، وأن تؤثر فيهم هذه الهزة التى زلزلتهم ، إلا أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والإعراض عن الله ، وطاوع نفسه وشهوته .

هذه هى حال الكافر حينما يتعرض للابتلاء والتمحيص ، فإنه ينتكس ولا يرعوى على خلاف المؤمن ، فإنه إن تعرَّض لمثل هذا الاختبار يزداد إيماناً ويقيناً .

والمقتصد هو البين بين ، تأخذه الأحداث والخطوب ، فتردُّه إلى الله حال الكرب والشدة ، لكنه إذا كشف عنه تردد وضعفتْ عنده هذه الروح ، بدليل أن الله تعالى يذكر فى مقابل المقتصد نوعاً آخر منهم غير مقتصد ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ [لقمان]

فمنهم من بهت كفره حينما تنبه فيه الوازع الإيمانى ، لكنه لما نجا غرَّته الدنيا من جديد ، ومنهم الجاحد الختَّار أى : الغادر .

ولك أنْ تلحظ المقابلة بين صبَّار وختَّار ، وبين شكور وكفور .

ثم يخاطب الحق سبحانه الناس ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

خطاب الحق سبحانه لعباده بيأيها الناس يدل على أنه تعالى يريد أنْ يُسعدهم جميعاً فى الآخرة ، وسبق أنْ ذكرنا الحديث القدسى الذى تقول فيه الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم . وقالت البحار : نغرقه ... إلخ ، فكان الرد من الخالق عز وجل « دعونى وخلقى ، فلو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية تقيك وتحميك ؛ لذلك يقول تعالى فى آية

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

أخرى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١)﴾ [آل عمران] وهما بمعنى واحد ؛ لأن معنى اتقوا الله : اجعلوا بينكم وبين صفات جلال ربكم وانتقامه وجبروته وقاية ، وكذلك فى : اتقوا النار .

فالخطاب هنا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى يريد أن يُدخلهم جميعاً حيِّز الإيمان والطاعة ، ويريد أنْ يعطيهم ويمنَّ عليهم ويعينهم ، وكأنه سبحانه يقول لهم : لا أريد لكم نِعَم الدنيا فحسب ، إنما أريد أنْ أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة .

وكذلك النبى ﷺ ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له ، كما ذكرنا فى قصة اليهودى الذى اتهموه ظلماً بسرقة درع أحد المسلمين ، وقد عزَّ على المسلمين أنْ يُرمى واحد منهم بالسرقة ، فجعلوها عند اليهودى ، وعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله ، فأداره فى رأسه : كيف يتصرف فيه ؟

فأسعفه الله ، وأنزل عليه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. (١٠٥)﴾ [النساء] لا بين المؤمنين فحسب ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] أى : لا تخاصم لصالح الخائن ، وإنْ كان مسلماً ، فالناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان .

وفَرْق بين : اتقوا ربكم واتقوا الله ؛ لأن عطاء الربوبية غير عطاء الألوهية ، عطاء الربوبية إيجاد من عَدَم ، وإمداد من عُدْم ، وتربية للمؤمن وللكافر ، أما عطاء الألوهية فطاعة وعبادة وتنفيذ للأوامر ، فاختار هنا الرب الذى خلق وربَّى ، وكأنه سبحانه يقول للناس جميعاً : من الواجب عليكم أن تجعلوا تقوى الله شكراً لنعمته عليكم ، وإنْ كنتم قد كفرتُم بها .

ولا تنتهى المسألة عند تقوى الرب فى الدنيا ، إنما ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا

لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] أى : خافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربكم ، وكلمة (يوم) تأتى ظرفاً ، وتأتى اسماً مُتصرِّفاً ، فهى ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث فى هذا اليوم كما تقول : خِفْت شدة الملاحظة يوم الامتحان ، فالخوف من الحدث ، لا من اليوم نفسه ، أمَّا لو قلت خفت يوم الامتحان ، فالخوف من كل شىء فى هذا اليوم ، أى من اليوم نفسه .

فالمعنى هنا ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا .. (٣٣)﴾ [لقمان] لأن اليوم نفسه مخيف بصرف النظر عن الجزاء فيه ، وفى هذا اليوم ﴿لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] خصَّ هنا الوالد والولد ؛ لأنه سبحانه نصح الجميع ، ثم خصَّ الوالدين فى الوصية المعروفة ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

ثم ذكر حيثيات هذه الوصية وقال ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ .. (١٤)﴾ [لقمان] فجعل لهما فضلاً ومَيْزة ومنزلة عند الله ، حتى أصبحا مظنة النفع حتى يوم القيامة ، فأراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن نفع الوالد لولده ينقطع فى الآخرة ، فكلٌّ منهما مشغول بنفسه ، فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه .

وفى سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨)﴾ [البقرة] أى : مطلق النفس ، لا مجرد الوالد والولد ، إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أيّاً كان .

والآية بهذا اللفظ وردت فى موضعين : اتفقا فى الصدر ، واختلفا فى العَجُز ، وهى تتحدث عن نَفْسين : الأولى هى النفس الجازية أى : التى تتحمل الجزاء ، والأخرى هى النفس المجزيَّة التى تستحق العقوبة .

فالآية التى نظرت إلى النفس المجزىِّ عنها ، جاء عَجُزها ﴿وَلاَ يُقْبَلُ

مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. (١٢٣) ﴾ [البقرة]

ومعنى : عَدْل أى فدية ، فالنفس المجزىّ عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية ، فلا يقبل منها فدية ، لكنها لا تيأس ، بل تبحث عَمَّنْ يشفع لها من أصحاب الجاه والمنزلة يتوسط لها عند الله ، وهذه أيضاً لا تنفع .

أما النفس الجازية ، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة ، فإنْ لم تُقبل عرضت العدل والفدية ؛ لذلك جاء عَجُز الآية الأخرى الذى اعتبر النفس الجازية بتقديم الشفاعة على العدل . إذن : ذَيْل الآية الأولى عائد على النفس المجزىّ عنها ، وذيل الآية الثانية يعود على النفس الجازية .

وهنا ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣) ﴾ [لقمان] لأن الوالد مظنّة الحنان على الولد ، وحين يرى الوالد ولده يُعذَّب يريد أنْ يفديه ، فقدَّم هنا (الوالد) ثم قال : ﴿ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان] فقدم المولود ، وكان مقتضى الكلام أنْ نقول : ولا يجزى ولد عن والده ، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود ؟

الكلام هنا كلام رب ، وفرْق كبير بين ولد ومولود ؛ لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر ، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أنْ يجزوا عنهم يوم القيامة ، فأنزل الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألاَّ يطمعوا فى أنْ يدفعوا شيئاً عن آبائهم الذين ماتوا على الكفر .

لذلك لم يقل هنا ولد ، إنما مولود ؛ لأن المولود هو المباشر للوالد ، والولد يقال للجد وإنْ علا فهو ولده ، والجد وإنْ علا والده . فإذا كانت الشفاعة لا تُقبل من المولود لوالده المباشر له ، فهى من

باب أَوْلَى لا تُقبل للجدِّ ؛ لذلك عَدل عن ولد إلى مولود ، فالمسألة كلام رب حكيم ، لا مجرد رَصْف كلام .

لكن ، متى يجزى الوالد عن الولد ، والمولود عن والده ؟ قالوا : الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية ، فإذا رأى الوالد ولده يتألم سارع إلى أنْ يشفع له ويدفع عنه الألم ، أما الولد فلا يدفع عن أبيه الألم لأنه كبير ، إنما يدفع عنه الإهانة ، فالوالد يشفع فى الإيلام ، والولد يشفع فى الإهانة ، فلكل منهما مقام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٣٣) ﴾ [لقمان] عرفنا أن الوعد : إخبار بشىء يسر لم يأت وقته ، وضده الوعيد ، وهو إخبار بشىء يؤذى لم يأتِ وقته بعد ، لكن ما فائدة كل منهما ؟

فائدة الوعد أنْ تستعدَّ له ، وتأخذ فى أسبابه ، فهو يشجعك على العمل والسعى الذى يُحقِّق لك هذا الوعد كأنْ تَعِد ولدك مثلاً بجائزة إنْ نجح فى الامتحان ، وعلى العكس من ذلك الوعيد ؛ لأنه يُخوِّفك من عاقبته فتحترس ، وتأخذ بأسباب النجاة منه .

إذن : الوعد حق ، وكذلك الوعيد حق ، لكنه خصَّ الوعد لأنه يجلب للنفس ما تحب ، أمَّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبها ، ووضحنا هذه المسألة بأن الحق - سبحانه وتعالى - يتكلم فى النعم أن منها نعَم إيجاب ، ونعَم سلب .

واقرأ فى ذلك قول ربك : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فإذا كانت الجنة وما فيها نعماً تستحق الشكر ، ويمتنّ الله بها علينا ، فأىُّ نعمة فى الشواظ والنار والعذاب ؟ قالوا : هى نعمة من حيث هى تحذير وتخويف من العذاب لتبتعد عن أسبابه ، وتنجو منه

قبل أنْ تقع فيه ، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غِرَّة ، ونبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه .

ووَعْد الله حقٌّ ؛ لأنه وعد ممَّنْ يملك الوفاء بما وعد ، وإنفاذ ما وعد به ، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء ، فوعده لا يُوصَف بأنه حق ؛ لذلك قال سبحانه في سورة الكهف : ﴿ **وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً** (٢٣) **إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

فأنت وإنْ كنتَ صادقاً فيما وعدتَ به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى أنْ تفى بما وعدتَ ، فإنْ بقيت فقد تتغير الأسباب فتحول بينك وبين الوفاء ، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه الأسباب .

إذن : تأدب ودَع الأمر لمَنْ يملك كل أسباب إنفاذ الوعد ، وقُلْ سأفعل كذا إن شاء الله ، حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول : أردتُ لكن الله لم يشأ .

وكأن ربنا - عز وجل - يريد أنْ يدارى كذبنا ويستره علينا ، يريد ألاَّ يفضحنا به ، وأخرجنا من هذه المسئولية بترك المشيئة له سبحانه ، وكأن قدر الله فى الأشياء صيانة لعبيده من عبيده . لذلك كثيراً ما نقول حينما لا نستطيع الوفاء : هذا قدر الله ، وماذا أفعل أنا ، والأمر لا يُقضى فى الأرض حتى يُقضى فى السماء .

وما دمنا قد آمنا بقدر الله والحكمة منه ، فلا تغضب منى إنْ لم أفِ لك وأنت كذلك ، والعاقل يعلم تماماً حين يقضى أمراً لأحد أن قضاء الأمر جاء معه لا به ، فالقدر قضاء ، ووافق قضاؤه قضاء الله للأمر ، فكأن الله كرَّمه بأنْ يقضى الأمر على يديه ، لذلك قلنا : إن الطبيب المؤمن يقول : جاء الشفاء معى لا بى ، وأن الطبيب يعالج والله يشفى . إذن : لا يُوصَف الوعد بأنه حقٌّ إلا وعد الله عز وجل .

وما دام وعد الله حقاً فعليك أنْ تفعل ما وعدك عليه بالخير وتجتنب ما توعَّدك عليه بشرٍّ ، وألاَّ تغرك الحياة ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٣) ﴾ [لقمان] أي : بزينتها وزُخْرفها ، فهي سراب خادع ليس وراءه شيء ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه يضرب لنا مثلاً للدنيا ، لا ليُنفِّرنا منها ، وإنما لنحتاط في الإقبال عليها ، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هي مجال للعمل للآخرة ومضمار للتسابق إليها .

يقول تعالى في هذا المثل : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٥) ﴾ [الكهف] فسماها دنيا ، وليس هناك وصف أبلغ في تحقيرها من أنها دنيا ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥) ﴾ [الكهف] نعم ، كذلك الدنيا تزدهي ، لكن سرعان ما تزول ، تبدأ ابتداءً مقنعاً مغْرياً ، وتنتهي انتهاءً مؤسفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ [لقمان] والغَرور بالفتح الذي يغرُّك في شيء ما ، والغرور يوضحه لنا الشاعر الجاهلي[1] وهو يخاطب محبوبته فيقول :

أفاطمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التدلُّل ... وإنْ كنت قَدْ أَزْمعت صَرْمي[2] فأجْملي

أغرَّك مني أنَ حبَّك قَاتلي ... وأنَّك مَهْما تأمُرِى القَلْبَ يفعَلِ

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور ، بحيث تُقبل على الأشياء ،

---

(١) هو الشاعر امرؤ القيس ، والأبيات من معلقته التي أولها :

قفَا نبْك منْ ذكرى حبيب ومَنْزل ... بسقْط اللّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَل

(٢) الصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/ ٣٧٥] .

وتتصرف فيها في كنف هذا الغرور وعلى ضوئه .

والغَرُور بالفتح هو الشيطان ، وله في غروره طرق وألوان ، فغرور للطائعين وغرور للعاصين ، فلكل منهما مدخل خاص ، فيغرّ العاصي بالمعصية ، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم ، وقد عصا أبوه فغفر الله له . لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) ﴾ [الانفطار] فأجاب هو : غرّني كرمه ، لأنه خلقني وسوّاني في أحسن صورة ، وعاملني بكرم ودلّلني ، حتى أصابني الغرور بذلك ، ولو أنه عز وجل قسا علينا ما اغتررنا .

وكان لأحدهم دَيْن خمسة صاغ فضة عند آخر ، فردَّها إليه ، فلما نظر فيها الدائن وجدها ممسوحة فأعادها إليه ، فقال المدين : والله لو كنت كريماً لقبلتها دون أنْ تنظر فيها .

فأخذ الواعظ هذه الواقعة وأراد أنْ يعظ بها الدائن ، وكان يصلي صلاةً لا خشوعَ فيها ، فقال له : إن صلاتك هذه لا تعجبني ، فهي نَقْر لا خشوع فيها . أرأيت لو أن لك دَيْناً فأعطاك صاحب الدين نقوداً ممسوحة قديمة أكنت تقبلها ؟ فقال الرجل : والله لو كنتُ كريماً أقبلها ولا أردها .

ثم يقول الحق سبحانه مختتماً سورة لقمان :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾